بغية أولي الأفهام

في

الفرق بين الحال والمقام

لسيدي السيد الشريف ، والهُمام العظيم الغطريف ، الشيخ

محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي قدس الله سره ورضي الله عنه

بتوجهات مدير الدائرتين ، وهمّة القائم في الرحبين

ونائب الأقطاب الوُرّاث ، أبناء الإمام أبي العَلمين

القائم بنشر العلم والحال المحمدي ، ورافع لواء الطريق الرفاعي الأحمدي

سيدي صاحب الفضيلة الشيخ محمود عبد الرحمن الشقفة حفظه الله وأيّد به الاسلام والمسلمين

عني بكتابتها وتحقيقها وترتيب جمعها ، واكرم بتصحيحها والإشراف على سير طبعها

طفيلي مائدة الآل ، والمستشرف بأعتابهم عند نُوّابهم لخدمة النعال

أفقر الورى ، وأحقر من ترى

عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط

السقباني الدمشقي غفر الله له ولوالديه ولأشياخه والمسلمين

الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هجرية

على نفقة جامعها وأخيه في الله المحسن الفاضل الحاج محي الدين غنام أحسن الله للجميع الختام

توزع مجاناً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مولي النعم ، والصلاة والسلام على عبده ونبيـــه سيدنا ومولانا وقرّة عيوننا ونبينا الحبيب الأعظم، والرسول الأكرم، سيد العرب والعجم،شرف بني آدم،صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى اخوانه النبيين والمرسلين ، وآل كل وصحب كل اجمعين آمين .

أما بعد فيقول العبد المفتقر إلى رحمة الكريم الهادي، محمد أبو الهدى الصيادي ، كان الله له ولوالديه والمسلمين إنه وليّ المتقين .

لا يخفى أن القوم (أعني السادة الصوفيـة) رضي الله تعـالى عنهم اصطلحوا على كلمات ، وأجمعوا على ألفـاظ مخصوصات قرّروا فيهـا حقائق عندهم معلومة ، ولديهم مفهومة ، منها الحال ، والمقام وقدغلط بعض العوام الذين ينتسبون لطُرُق القوم فمـا فرقوا بين الـكلمتين ، ولا بين رجال الصفتين فكتبت هذه الرسالة الوجيزة خدمة لمصطلحات القوم ، وتنزيها لأتباعهم من وصمة اللوم وسميتها (بُغية أُولي الأفهام في الفرق بين الحال والمقام) والله المسؤول أن ينفع بهـا المخلصين ،

وأن ينوِّر بها أذهان الموفقين ، فإن كلمة الحق ثقيلة على غير الخالصين (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .

اعلم أيها المحب ـ كان الله لنا ولك وللمسلمين آمين ـ أن الحكمة تصدر عن صاحب المقام ، والانفعالات تصدر عن صاحب الحال، والحكمة مرتبة الدعوة الموروثة من الجناب المحمدي، والانفعالات تقوم بسلطة الحال فيما يصلح وفيما لا يصلح ، بخلاف الحكمة فإنها متى دخلت القلب الذي تُفرَغ فيه استقرّت وما فرّت ، ولذلك قال تعالى للنبي العظيم عليه أزكى الصلاة والتسليم (أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال تعالى لنبيه موسى ولهارون عليهما السلام بشأن فرعون (فقولا له قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يخشى) وأما الانفعالات فإن كانت عن حال محض ولم يكن للذي تصدر على يديه حظ المقام فالإنكار عليها أكثر من الانقياد اليها ولو هي حق وهي من مدد الغيب الذي يحفُّ بصاحب الحال الصادق فليتدبر .

وقد يحصل الانكار أيضاً للانفعالات التي تصدر عن يد صاحب مقام ، وأدلة ذلك في الكتاب والسنة كثيرة وسيأتي ـ إن شاء الله ـ ذكر بعضها والله المعين .

وقد تلخّص من هذا التمهيد ان لسان الحكمة يدل على المقام ،

والانفعالات تدل على الحال ، وهنا لطيفة وتلك أن كل صاحب مقام يكون صاحب حال ولا عكس والمقام أعلى من الحال على كل حال، وفي الوصفين مراتب ومنصّات وأطوار ودرجات ، ولنا علامة على صاحب المقام ، وعلامة على صاحب الحال ، وصاحب المقام لايصرفه حاله إلى قول فوق التحدث بالنعمة في كل طور وعلى كل وارد يقف في أقواله وأطواره تحت لواء قوله تعالى (وكان الله عليكم رقيبا) دائم الخشية والخشوع ، صحيح المراقبة والخضوع ، شَغَلَه المُنعم عن النعمة ، والمُظْهِر عن المَظْهَر ، والأدب للمُكوِّن ومعه عن كل ما يطلعه عليه من أسرار الكون وحوادثه ؛ وهذا شأن العبد المحض المتحقق بمقام العبودية الكاملة ، ومقام العبدية هو أرفع مقامات المحبوبية ، ودون أهل هذه المنزلة غيرهم كيف قالوا وإلى أين طالوا نص على ذلك أكابر القوم واتفقوا على ذلك وممن صرح بذلك الشيخ الجليل محيي الدين العربي الحاتمي ، والشيخ القدوة شهاب الدين عمر السهروردي والإمام الكبير العسقلاني، والعارف الشعراني ، والإمام ضياء الدين أحمد الوتري ، والعارف العلامة أبو بكر الأنصاري وخلائق ؛ ومقام العبدية هو في الحقيقة مقام الحرية المطلقة فمتى صحت للعبد مرتبة العبدية فقد ثبتت له مرتبة الحرية ، ورضي الله تعالى عن العارف

الإمام شيخ الطوائف أبي محمد الجُنيد البغدادي فإنه قال: لو جازت الصلاة بغير القرآن لجازت بهذا البيت :

أتمنَّى على الزمان مُحالاً أن ترى مُقلتاي طلعة حُرّ

وقال العارف الكبير أبو عبد الله الشيخ عمرو بن عثمان المكي أحد الخواص من أصحاب الإمام الجنيد رضي الله عنهما : الحرية التخلص من دعوى الفعل والقطع والوصل وأهل العبودية قليل وهم الأحرار . انتهى كلامه المبارك .

فعلى هذا صاحب المقام إذا تكلم لم يجمع به طوره في كلامه إلى شأن يتعدى حد التحدث بالنعمة ، وأما صاحب الحال فمتى طفح عليه سُكر حاله جمح وشطح وتكلم بما هو فوق منزلته ، وأبعد من شأوه ومرتبته ولذلك قال قائل القوم : كلام السكارى يحمل لأن قائلهم لم يقل عن صحو وإدراك بل عن غلبة وغيبة فهو معذور وكلامه وإن لم يكن مقبولاً فمحمول ولهذا قال بعضهم طيَّب الله أرواحهم :

ولا يؤاخذ السكران في حال سكره
ففي سُكرنا الأقلام مرفوعة عنا

وقد تعيَّن من هذا الإيضاح أن السُكر ملزم بعدم المؤاخذة فقط ولكن لا يصح الاتباع للسكران حالة سكره وتدبّر .

فقد قال العارف الشيخ محيي الدين العربي طاب مرقده في (الفتوحات المكية) : الوليّ لا يكون ولياً عند الله حالة الشطح .

قلت : لأن الولاية مقام أصلي والشطح حال عارض ومثاله كالنوم فإن الرجل ما دام يقظان فهو يتصرف بحكم عقله وبصره وبصيرته وقدرته ونُطقه وأخذه وردّه ، وإذا نام فإنه ينسلخ عن كل هذا ويبقى للنوم فيه خبطات لا تنطبق على حِكمة ولا على عقل ولا على بصر أو بصيرة سوى ما يكون من إشراقات الروح التي تكون من الرؤيا وتلك لها متعلّقات وأحكام فتارة تكون صحيحة ، وتارة تكون مختلطة ، وتارة تكون فاسدة كاذبة وقد قال قائلهم : من غرّته المنامات تحت طيّ المُنى مات . وقال آخر : من غرّته الكرامات ضمن ليل الكرى مات. وعلى هذا فصاحب الحال الذي يقول ويصول ويتجاوز حدّ التحدُّث بالنعمة ويزلق عن مرتبته التي أُفيضت له من حضرة الكرم ويتعدّى الحدّ مع امثاله بل مع من هم فوقه في المقام والمرتبة والحِكمة والمنزلة فهو مغلوب لسُكر الحال لا يؤاخذ ولا يُصدَّق في كلامه ، ولا يقتدى به في ما يقول ؛ وهذه القاعدة التي اتفق عليها

القوم أوائلهم وأواخرهم — رضي الله تعالى عنهم — ونقل رجل لحضرة سيدنا الرفاعي رضي الله تعالى عنه أن الشيخ عبد الله الهندي المقيم بواسط قال بشأن الإمام الرفاعي : هذا ما هو من رجال الحضرة فلم يتغير وقال : صدق الشيخ . وسكت ، ثم أتى رجل آخر فقال لحضرة الإمام السيد احمد ـ رضي الله عنه ـ إن الشيخ الزعفراني قدس الله سره قال بشأن السيد احمد : صدر الحضرة وشيخ اهلها من عهد الشيخ منصور إلى أن يُنفَخ في الصور . فلم يتغير وقال : صدق الشيخ. فلما انقضى المجلس قام الشيخ يعقوب بن كراز قدس الله روحه وأكبَّ على قدمي السيد احمد ـ رضي الله تعالى عنه ـ وقال : أي سيدي بحرمة العهد والصحبة ، وحقوق المودة والمحبة اخبرني ما ذاك الهبوط ، وما هذا الصعود . فقال يا شيخ يعقوب : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) الشيخ عبد الله الهندي رأى في الحضرة مَنْ دونه ؛ وهذا اللاَّش أحيمد لم يكن فيمن رآهم فقلت صدق الشيخ ؛ والشيخ الزعفراني أفصح عن نعمة الله المفاضة إلى عبده الضعيف فخفت أن أجحدها فتغار الربوبية فقلت تحدُّثا بنعمة الله تعالى صدق الشيخ ؛

أي سيدي يعقوب والله لو أن العالَم فريقان فريق يقرض لحمي

بمقاريض من نار ، وفريق يُروِّحني بمراوح الند والعنبر لما نقص هؤلاء عندي ، ولما زاد هؤلاء عندي .

وهنا نكتة لطيفة وتلك أن المقام من شأنه التمكين ، والحال من شأنه التلوين ، والتمكين يُنتج الاستقامة ، والتلوين يُنتج الملامة ، وقد غلط قوم فما فهموا عبارة بعض المشايخ الذين قالوا : بأن التلوين أعلى من التمكين ، وظنوا أن مطلق التلوين أعلى من مطلق التمكين وهذا غلط فاضح ، وخطأ فادح بل مطلق التمكين في كل حال فوق مطلق التلوين بما لا نسبة فيه من المراتب غير أن التلوين في المقام بمعنى التزحزح منه إلى ما يعلو عنه هو أرقى من المقـــام في المقام (أعني التمكين في المقام مع الاستقرار فيه من دون ارتقاء إلى ما هو أسمى منه) وهذا سر قول الله تعالى (وقل ربِّ زدني علما) وروي عن النبي ﷺ أنه قال « كل يوم لا أزداد فيه علماً يُقرّبني إلى خالقي فلا بارك الله في صحبة ذلك اليوم » وإلاّ فالتلوين دون التلوُّن في نسق المقام من اللون الأدنى إلى اللون الأعلى فهو نقص لا يكمل إلاّ بالتمكين ، ولذلك فإن القوم إذا نعتوا رجلاً من عظماء أصحاب المقامات قالوا هو رجل متمكِّن ، ولا بدع فإنهم قالوا : إن التمكن في المقام أجلُّ منزلة من المقام ؛ واستدلوا بقوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فإن تنزُّل الملائكة بالبُشرى لهم ما كان بمجرد قولهم (ربنا الله) بل الاستقامة على ذلك القول الحَسَن ، وهذا هو التمكن في مقام الإيمان على أن القول من دون استقامة على حُكم القول يكون ضرباً من الهذيان ؛

وتدبَّر ما نقل عن الإمام الرفاعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ فإنه سُئل عن الرجل المتمكِّن فقال : هو الذي لو نُصب له سِنان على أعلى جبل شاهق في الأرض وهبَّت عليه رياح الليالي الثَّمان ما غيَّرت منه شعرة واحدة .

وقد قالوا : المتمكن صاحب المقام يسكن فتفعل القدرة له ، والمتلوِّن صاحب الحال يجمع حاله معربداً فيفعل ومتى شغل قلبه بالفعل انحطّ عن منزلة التيقظ كل الانحطاط ، وعلى هذا فالمتمكن في مقامه يعلو بسكونه ، والمتلوِّن في حاله ينحطّ بعربدته ، وصحح الفكرة فيما قاله الغوث الأكبر الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ في (البرهان المؤيَّد) ونصه : أيش تقول للذي يعجبه علوّه على الناس ويحب انقياد الرقاب إليه ، خَلِّ عنك يا مسكين انقادت لك الرقاب ، وما انقادت لك القلوب ،

متى سقطت من حالك ووارداك تقلّبت عنك القلوب ، وداستك الأقدام ، وبقيت أسود الوجه . انتهى كلامه الشريف .

ومنه يُفهم أن وارد الحال إذا أخذ بصاحبه فسكر وعربد وتبع وارد سُكره فتكلم بما هو فوق منزلته متى صحا خجل وانحطّ عن مرتبة حاله بسبب اشتغاله عن المنهاج الذي يُصعده إلى منصة كماله ، ولذلك قالوا إجلس على البساط وإيّاك والانبساط .

ولوارد الحال عقبات مُهمّة لا يفطن لها ويتخلص منها إلاّ جهابذة أولي الحال على أن نبعة الوارد تصدر عن طارقة جمال أو عن طارقة جلال أو عن طارقة إفاضة أو عن طارقة عِبرة أو عن طارقة فكرة تلحق إما بدهشة وإما بفرحة وإما بالْتباس شؤون ؛ ولكل هـذه الدقائق حقائق ورقائق تحتاج لتفاصيل لا بد منها ولا غِنى عنها والله المعين .

فأقول : إن كان الوارد عن طارقة جمال انبسط صاحبه فقال وصال وعربد واستطال وتعالى على الأمثال بل ربما زعم العلوّ على من هم فوقه بمراتب ، وشطح وزها وتكلم بالعجائب .

وإن كان الوارد عن طارقة جلال فإن طَرَق القلب هاب فنطق

اللسان بما يُخشع له من رقائق الهيبة ، وإن طرق أحد منافذ الخيال عربد صاحبه بما يُستغرب من الدعوى .

وإن كان الوارد عن طارقة إفاضة طمح نظر صاحبه فتعدّى الحد وعلا ، وسكِر وامتلا ، وطفح به الإنا ، وكان كل آن قوله : أنا .

وإن كان الوارد عن طارقة عبرة غلبت صاحبه رؤية الآثار ، وإن زُيِّنت تلك الغلبة برقائق الاعتبار .

وإن كان الوارد عن طارق فكرة فقد تلحق بدهشة فصاحبها يُسلب منه ، ويؤخذ عنه ، وقد تلحق بفرحة فصاحبها مُتعالٍ في حاله وأقواله ، تعذُب كلماته ولكن للعامّة الذين لا يفرّقون بين الشحم والورم ، ويأكلون السم في الدسم ، وإن لحق الفكرة التباس شؤون فصاحبها مشغول ، تارة يقول ، وتارة يصول ، وتارة دمعه يسيل ، وتارة يعلو ويستطيل ، وتارة إلى الذل والانكسار يميل ؛ (وهنا ضابط) فإن جهابذة أهل الأحوال إذا الطارق طرقهم وأنطقهم قابلوه بالسكوت والسكون ، فإن هزّهم للكلام بكوا وشكوا وأنّوا وحنّوا وتكلموا برقائق الشوق ، ودقائق التوق ، وأوقفتهم مُكنة الهمة عند حد التحدث بالنعمة ؛ فلا يخطفهم الاشتغال بالحال إلى القيل والقال ، ولا يُصعدهم درج ذلك الزلزال إلى حظيرة الخيال ؛ وأهل المقامات الثابتة هم عن كل

هذا بمعزل ، همتهم في منزل وطارق الحال ودعواه في منزل ، ألاَ إنهم هم الأحرار الذين صدورهم الشريفة قبور الأسرار ، وإلى هذا الشأن الجليل ، أشار الامام الأصيل ، صاحب الباع الطويل سيدنا ومولانا الامام الرفاعي ـ رضي الله تعالى عنه وعنا به ـ قائلا :

الحب أظهر اهليه على الناس فلا يُرى فيهمُ ساهٍ ولا ناسي
إلاّ أخو ثقة مُستبصرٍ فطنٍ مُولَّه راسخ في علمه راسي
في الحان مولده طفلاً ومنشأه بين الرفاق مطيع الكاس والطاسِ
يغنيك منظره عن كنه مَخْبَره سهل الخلائق من خمر الهوى حاسي
يسقي ويشرب لا تلهيه سكرته عن النديم ولا يلهو عن الكاس
أطاعه سكره حتى تمكّن من حال الصُّحاة وهذا أعظم الناس

وقد تقرر أن نتيجة الحال الشطح وهو لا يخلو من رعونة دعوى، ونتيجة المقام الحِكمة ، وهي لسان الدلالة على الله تعالى ، ومشرب أنبياء الله والصدِّيقين من أولياء الله تعالى ، وأوقات الشطح كثيرة وقد تكلم بشأنه جماهير العارفين ونصوا على حُكم الشطح ، وما يكون منه وينتج عنه ، وتكلموا على مبناه ومعناه فقالوا : الشطح الذي يلفظ به أهل السُّكْر من العارفين هو كلام صادر عن صاحب وجد قد فاض

وجده بقوّته ، وهاج سرّه لشدة غليانه . وعلا شوقه بتلهّبه ، وعظُم عشقه بارتفاعه فتزحزح عن منزلته ، وصعِد عن حدّ مرتبته فتكلم فمنهم من يغلب واردَ السُّكْر بالسكوت ومنهم من يغلب الوارد فيتكلم ، فتارة يصيب وتارة يخطىء ، وخطأ أهل الشطح على الغالب أكثر من صوابهم،والشطح في لغة العرب هو الحركة يقال شطح يشطح إذا تحرّك ، ويقال للبيت الذي يتحرّز فيه الدقيق مِشطاح من كثرة ما يحركون فيه الدقيق (أعني في ذلك الموضع ينخلونه به) فشطح العارفين مأخوذ من حركة أسرارهم في قلوبهم إذا قوي وجود واردهم، وعلا غليان ما باشر صميم فؤادهم من أحوالهم ، وسطع سناء مكاشفات أرواحهم ، واستحكمت حقائق الإلهام في لُباب عقولهم فيهيجهم ذلك إلى كشف ما وقع لهم من مطالعات الغيب فيعبّرون عن ذلك بعبارات يستغربها السامع فتكون سبب الانكار على قائلها والطعن فيه ، وقد ابتلي بذلك الكثير منهم إلاّ من رحم الله وعصم ، وذلك لأن وقوع الخطأ في كلماتهم ممكن بل يكثر من أهل هذا الصنف الخطأ ؛ ولذلك قال الكمَّل منهم ـ رضي الله تعالى عنهم ـ : الشطاح حُكمه حُكم السكران لا يؤاخذ بكلامه ولا يقتدى به فيما يقوله حالة الشطح بل ولا تدوّن كلماته ، ولا تنقل عباراته ، ولا تُعتبر إشاراته ، وقد

زلق أُناس من أهل الجهل بخضوع بعض أهل التمكين لكلمات بعض الشطّاحين ، وما ذلك إلا من عدم تسلُّقهم لمراتب العرفان ووقوفهم على سرائر هذا الشان، والحال أن بين الخاضع المتواضع لذلك الشطاح المتجاوز وبين الشطاح فراسخ عظيمة انحط عنها الشطاح ووقف في مهمه سُكره دونها لا يُميّز بين المساء والصباح ؛

وتدبّر قول العلامة العارف الشعراني في كتابه (الجواهر والدرر) ناقلا عن شيخه الشيخ علي الخواص أنه قال : ومتى يتفرّغ العبد للإدلال وجميع الحقوق الإلهيّة تطلبه في كل نَفَس ولمحة ، وقَلّ عبد يخلع الحق تعالى عليه خلعة السيادة إلا ويدخله شهود الزّهو والعُجب ثم قال : ولما خُلعت هذه الخِلعة على أبي يزيد البسطامي صار الناس يتبرّكون برقعته فلامه بعض الناس . فقال : إنما يتبركون بخلعة الحق تعالى لأبي يزيد .

ورأى بعض الفقراء الشيخ عبد الله بن أبي جمرة المدفون بقرافة مصر ـ رضي الله تعالى عنه ـ وهو جالس على كرسي وعليه حُلّة خضراء والأنبياء كلهم واقفون بين يديه فأشكل ذلك عليه فعرضه على بعض العارفين فقال له : وقوف الأنبياء إنما هو أدب مع من ألبس الخلعة لا مع مَن لبس الخلعة انتهى كلامه .

ومن هذا تعلم أن الخضوع من بعض المتمكنين لكلمة من كلمات الشطاحين إنما هو خضوع للوارد حيث أن أصل الوارد سر تنزلي سقط عن طارقة جمال أو جلال أو عبرة أو إفاضة وقد سبق الكلام على ذلك مُفصلاً فيخضع العارف المتمكن لهذا الوارد كخضوع سيدنا موسى عليه السلام فقد أُغشي عليه حين تجلى ربه للجبل ولم يكن التجلي إذ ذاك لموسى عليه السلام وهل يشك أن سيدنا موسى صلوات الله عليه أفضل من الجبل ؟ حاشا بل هو من عظماء أولي العزم عليهم الصلاة والسلام قال تعالى (ولما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا) ومن هذا القبيل وقوف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بين يدي ابن أبي جمرة كما نص على ذلك العارف الشعراني طاب ثراه على أن غُبار أقدام الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم أفضل من ابن أبي جمرة وغيره من أعيان الأولياء بلا ريب .

وقد قال الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ لغبار ثار من حوافر خيل أصحاب رسول الله ﷺ في خدمته أفضل من ابن عبد العزيز وأمثاله ، وفي هذا حل رشيق لهذه الإشكالات التي ترد على خواطر البعض من المتصوفة والمحبين لطريق القوم المتعطشين للوقوف على مشاربهم وأحوالهم ومقاماتهم ومذاهبهم نفع الله بهم ، ومن هذا القبيل سؤال

النبي ﷺ الدعاء من سيدنا عمر الفاروق - رضي الله عنه - ومشي الصديق الأكبر - رضي الله عنه - آخذاً بزمام راحلة أُسامة بعد وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام يوم أمضى إمرته على الجيش الذي كان أمّره عليه رسول الله ﷺ ، وسؤال عمر وعلي أميري المؤمنين - رضي الله تعالى عنهما - الدعاءَ من أُويس القرني - رضي الله عنه - فكل هذه الأخبار تدل على خضوع الفاضل للمفضول لا لذاته ولكن للأمر الذي أوجب الخضوع له، ومن هذا القبيل قول بعضهم : قدمي على رقبة كل ولي لله، وخضوع الأولياء لهذه الكلمة هذا إن صحت الرواية فإن الاختلاف الكثير قد وقع بشأن هذه الكلمة ، وقد اتُّهم ناقلها الشطنوفي بالكذب حتى قال الحافظ الذهبي : إنه كتب بمؤلَّفه الذي نقل فيه هذه الكلمة الذرة وأُذُن الجرّة .

وقال الامام ابن حجر العسقلاني: أكثر فيه الروايات المكذوبة، والنقول عن المجهولين . وإلى هذا ذهب الحافظ ابن رجب الحنبلي في طبقات الحنابلة .

والامام الشعراني عدها من الإدلال ، وإنها لاتكون عن أمر ، وان قائلها رجع عنها عند موته ، وقال كما في المنن الكُبرى : ضعوا خدي على عتبة هذا الباب لعل الله يرى ذُلي فيرحمني ، وقال : هذا هو

الحق الذي كنا عنه في حجاب . وقد أطال العارف محيي الدين ابن العربي ـ قدس الله روحه ـ ببيان هذه الكلمات المنسوبة لذلك الأُستاذ الجليل طاب مرقده ونفع به وعدها إدلالاً ؛

ولكن الامام السهروردي في (عوارف المعارف) عدها من السُكر وتكلم في باب التواضع من كتابه المذكور على هذه الكلمة كلاماً عجيباً ، وخلاصة كلامه أنها من كلام السكارى حين يطفح عليهم الحال ، ومثل تلك الكلمات من استراق النفس السمع ، وإن من أشكل عليه ذلك فليقس هذه الكلمات على كلمات أصحاب رسول الله ﷺ يجد أنهم لم يفه أحد منهم بمثل ذلك وإن قائلها لسكره يحمل ولا يؤاخذ ولكن لا يعتبر كلامه ، ولا يُقتدى به فيه ، هذا فحوى كلامه وقد أطال بذلك كل الإطالة فمن أراد الوقوف على نصوصه بحروفها فليراجع كتابه (عوارف المعارف) في باب التواضع ففيه الكفاية .

وقد قال الشيخ محيي الدين في (فتوحاته) : الولي حالة الشطح لا يكون ولياً عند الله . وعرَّف ذلك القوم فقالوا : إن حالة الشطح كالنوم والولاية كحالة اليقظة ففي حالة النوم تبطل أحوال اليقظة ولا يخرج النؤوم من التعطيل عن حالة اليقظة إلا إذا استيقظ وكذلك الولي فلا تصح له مرتبة الولاية حالة شطحه وسكره حتى

يصحو وكل شؤونات الشطح أحوال تترفع عنها مراتب أهل المقامات الذين تمكنوا وغلبوا واردات الأحوال بمكنة المقامات الراسخات فاذا تكلموا عن وارد حق ما تجاوزوا حدّ التحدّث بالنعمة على حد قول قائلهم رضي الله عنهم :

ولما شربناها ودبّ دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها قفي
مخافة أن يسطو عليّ مُدامها فتظهر جُلاّسي على سرّيَ الخفي

وقد قال الكُمَّل من أهل هذا الشأن : إن الحال ينتج الشطح ، والشطح هو دعوى قد تكون صادقة وقد تكون كاذبة بارزة من حضرة خيالية ؛ فإن كانت صادقة فهي بقية رعونة في الطبع تبرز حالة الغيبة على اللسان ، وإن كانت كاذبة فهي سم قاتل والعياذ بالله تعالى .

وتدبر يا أخي قول سيدنا الإمام الأكبر السيد أحمد الرفاعي - رضي الله عنه - فإنه قال : الدعوى رعونة طبع لا يحتملها القلب فيلقيها إلى اللسان فينطق بها لسان الأحمق ، روى ذلك عنه المناوي في طبقاته ، وابن الحاج والشعراني وغير واحد .

وقال سيدنا الإمام الرفاعي - رضي الله عنه - أيضاً : قيدوا الألسن

عن الدعاوي، وأطلقوا الأفكار لاقتناص المعاني، واحذروا الرقيب فإنه يحذركم نفسه ؛ كلماتكم بحروفها وأصواتها وغُنَّتها استودعها هذا الريح المعرّش في الفضاء سيعاد ذلك على أسماعكم (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) لا تدعوا العمى والواحد منكم كالنملة له ست عيون ، إذا تعاميتم تعاموا عن دعاويكم ، عن النظر إلى عيوب غيركم ، كونوا رقباء على أنفسكم ، التصوف ترك الدعاوي ، وكتمان المعاني، والخُلُق الحسن ، والوقوف عند حدود الله ، والشفقة على خلق الله ، والتمسُّك بسُنة رسول الله ﷺ والتعظيم لأمر الله تعالى ، واحتقار النفس ومحق ثورتها ، والعمى عن الدنيا التي هي أسحر من هاروت وماروت ، وصحبة أهل الحق ، والتباعد عن أهل الباطل ، وبعد هذا فكل من زاد عليكم بالخُلُق زاد عليكم بالتصوف . انتهى كلامه العالي .

ومن هذا علمنا أن قبض اللسان هو الأدب الكامل ، وعرفنا أن هذا الفضاء دفتر أقوالنا ، وكلها ستعاد على أسماعنا ، وهناك يندم المبطلون ويغنم الصادقون، ولهذا قال قائلهم : كلمة الحق شمس مشرقة وكلمة الباطل ظلمة مزلقة . وما رأينا ممن اتبع أهل الشطح وقال بقولهم

سوى الزالقين ، ولا رأينا ممن اتّبع أهل التمكين وتأدب بآدابهم سوى الصالحين .

وليُنظر كيف قال شيخ طريق القوم تاج العارفين مولانا الجُنيد ـ رضي الله عنه ـ للحلاج رحمه الله حين غلبه سكره ، وقال واستطال : قد فتحت في الإسلام ثغرة لا يسدها إلا رأسك .

وكان الذي قاله الجنيد له فإنه أُخذ بسيف الظاهر ، والله أعلم بالسرائر .

وقال الإمام الجنيد ـ رضي الله عنه ـ طريقنا مضبوط بالكتاب والسُّنة . ففي هذه الجملة المباركة عرفنا القاعدة التي تنطبق عليها أحوال القوم وأقوالهم ؛ ولا بِدع فإن الكتاب والسُّنة متشابهات ورقائق شؤون بالسُّنة لجاهلي أسرار الكتاب والسُّنة غامضات ، وعلى هذا فلا ينبغي للعاقل أن ينكر حالاً من أحوال القوم أو قولاً من أقوالهم بمجرد الرأي بل عليه أن يتحرّى الحق وأن يستكشف غامض السر ليجعل له رداً إلى الله ورسوله ﷺ ولا يتم له هذا الاستكشاف ببادىء رأيه بل يجب أن يسأل أهل العلم بالله وبسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ المبرّئين من أمراض الأغراض عملاً بقوله تعالى (فاسألوا

أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وهناك فالحكم في الأمر للشرع الأنور، وللكتاب الأطهر (ألا إلى الله تصير الأمور) .

وقد ذكر العارف الشعراني : أن بعض القوم يُقام له منبر محمدي فيشهده فتتدلّى المخاطبات السماوية للروح المحمدية من حضرة الأمر فيظن ذلك المستغرق أن الخطاب له فيزداد سُكراً واستغراقاً وهناك ويشطح في جوابه بنسبة الخطاب حتى إذا صحا من استغراقه وعرف الحق تاب وأناب ورجع عما قاله واستغفر وندم .

وقال ابن شهريار قدس الله روحه : استغرق البسطامي في ذكره وتلاوته فكرر الكلمات بالتلاوة فظنها سامعها أنها من كلامه ، ومن نسيج مقامه فزلق ، وتلك كمن أخذته جاذبة استغراق حالة تلاوة قول الله تعالى في سورة طه (إنني أنا الله لا إله إلاّ أنا) الآية فغاب عنه وأُخذ منه ، وكرّر قوله تعالى (إنني أنا الله) تلذّذاً بكلامه سبحانه ، وإعظاماً لقدسه ، وإجلالا لسلطانه ، فذهب السامع فيه إلى ما ذهب وحقيقة الأمر لم تكن كذلك ، وهذا تأويل حَسن ومعنى رشيق ؛

ومع ذلك فإذا رأينا من حال القائل طوراً أو سمعنا كلاماً لا ينطبق على هذا التأويل نشأ عن سُكر أرجعناه للقاعدة الأُولى فقلنا لا يؤاخذ هذا القائل لأجل قوله لأنه في حال غيبة سُكر ، غير أن كلامه

لا يعتبر ولا يعبأ به بل ولا يُـدوَّن أو ينقل ولا يقتدى بقائله فيه ، والقول به من مزالق الأقدام والعياذ بالله ، وحسبنا الله .

وكلمات الغيبة والسُّكر منها قول بعضهم : قدمي على جبهة كل وليّ لله . وجاء الآخر فقال : قدماي على هام كل وليٍّ لله ؛ وكل هذه الكلمات وأمثالهـــا من فلتات الاستغراق والغيبة ومن طوارق الأحوال ، وهي مردودة بحكم قاعدة الشرع الشريف ، وطريق القوم المنيف ، والقياس كلام الأنبياء والصديقين والعلماء الربانيين ، وأولياء الله العارفين المتمكنين من عهد أعيان الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ إلى زماننا هذا والشاذّ لا حكم له ، نعم لنا أن نحترم القوم أهل السُّكر الصادقين بكف اللسان عنهم ، وعدم القول بمؤاخذتهم لما خامرهم من سُكر الحال ، وكلام السكارى يُحمل ولا يُعمل به ولا ينقل هذا إذا سلّمنا بصدوره من بعض أهل الكمال على أن اسنـاد الكلمات العظيمة إلى القوم واختلاف الشطحات العجيبة وإضافتها اليهم ممكن وقد وقع ، وقد نص الذهبي ، وابن رجب الحنبلي ، وابن حجر العسقلاني ، وابن كثير ، والوتري وخلائق على أن الكثير من الروايات المندرجة في (بهجة الأسرار) الكتاب الذي ألّفه الشيخ علي الشطنوفي عفا الله عنه في مناقب القطب الرباني ، ذي الحـال النوراني ، صاحب الإشارات

والمعاني سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ رضي الله عنه ـ قد راجت عليه من المجهولين وفيها ما ينابذ قوانين الشريعة المطهّرة من الأخبار المكذوبة ، والحكايات الملفّقة الموضوعة، وعلى هـــذا فمقام حضرة القطب الجيلاني قدس سره النوراني محفوظ ، وبأنظار التكريم ملحوظ ، ولا عُهدة عليه فيما رُوي عنه ولم يكن منه لا عند الله ولا عند الناس ، وقد أخذ الغلو أُمة فقالوا سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ابن الله وحاشا الله وكأنه قال للناس إتّخذوني وأُمي إلـهين من دون الله ، وهو سلام الله عليه مُبرّء من كل هذا ، مصون المقام ، عظيم الشان أحد أُولي العزم الذين يقولون حقاً ، ويحكمون عدلاً على نبينا الأعظم وعليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين أفضـل الصلاة وأكمل السلام ، وكم وضع الوضّاعون من أهل الزور حديثاً أسندوه للمصطفى الأكرم ﷺ ولم يكن من كلامه الكريم ، ولا صدر عن لسانه العظيم عليه شرائف التسليم ، وقد ذهب آخرون فقالوا بأُلوهية الإمام علي الكرار عليه أجلّ رضوان الملك الجبار ، وكل ذلك من الهفوات الدافعة إلى النار وبئس القرار .

والحق في كل هذه المعامع ظاهر لا يخفى على ذي عقل سليم يفرّق بين الصحيح والسقيم ، وقد تميل نفوس أهـل الجهل للكلمات العظيمة

والمقولات الزائدة وأهل العلم مقيّدون بالحق ، واقفون مع الشرع لا يُسفّهون لأهل الحق آرائهم ، ولا يبخسون الناس أشياءهم ، لا يُفرِطون برفع الحجر إلى منزلة القمر ، ولا يُفرِّطون بإنزال الدُّر منزلة المدر ، بل هم مع الحق في جميع الشؤون والأطوار ، يدورون مع الحق أين دار ، ومثل أُولئك السادة الكبار ، والمشايخ الأخيار ؛ الذين نشر الله في بلاده أعلامهم ، وأعزّ بين عباده مقامهم ، وأعطاهم الحال الصادق والمقام الرفيع ، وأيّدهم بالقدم الثابت والحمى المنيع ، فهم في غنى عن إسناد مالا يصح اليهم ، وفي رِفعه شامخة عن أن يحمل مثل هذا الكلام عليهم ؛

وتفكّر أيّها المحب بشأن الإمام الأكبر ، والقمر الأنور ، قطب الدوائر ، شيخ الأقطاب الأكابر مولانا السيد أحمد الرفاعي ـ رضي الله تعالى عنه وعنا به ـ فانه بلغ من المقامات أعلاها ، ومن المراتب أسناها بل نقل الإمام عبد الغفار القوصي الشافعي ـ رضي الله عنه ـ في كتابه الوحيد : أن السيد أحمد ـ رضي الله تعالى عنه ـ تعدّى المقامات والأطوار وأنه كان له في كل مقام مقام ، وقد قال لتلميذ له نزهني عن القطبية ، نزهني عن الغوثية لأنه رآها دون ما أنعم الله تعالى عليه به ؛ ومثل ذلك قال الشعراني رحمه الله وغيره .

ونقل الإمام ابن السراج القرشي الدمشقي في (تفاح الأرواح)

عن القطب الكبير سيدي محمد بن عبد البصري شيخ الإمام السهروردي ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال بشأن الإمام الرفاعي : إنّا نعرف الجهة التي اتّجه اليها ولا نعرف منتهاه في السير ، ومن قال لكم إنه يعرف منتهاه في السير فكذّبوه . وأطبق على ذلك القوم الذين برّأهم الله من اللوم ، ومع كل هذه المعالي الشامخة ، والرفعة الباذخة ، فقد كان يخضع لمن هو دونه بمراتب ، ويرى محق النفس وإخماد ثائرة غرورها من أهم الواجب ، ويقود العميان ، ويخدم الضيفان ، ويقضي حوائج الأيتام والأرامل والعجائز والمساكين الذين أقعدهم الكِبَر عن حاجاتهم من المسلمين والنصارى واليهود ، وقد أسلم على يديه منهم خلق كثير نص على ذلك الشعراني في (مِننه) ، وابن الحاج ، والوتري ، وابن جلال اللاّري الحنفي وخلائق ، وكان لا يرى لنفسه الطاهرة على غيره مزية ، وحضر عنده الإمام ابن الجوزي الحنبلي رحمه الله وعنده أكثر من مائة ألف إنسان وقد قام بكفاية الجميع ، فقال له : ياسيدي هذا جمع عظيم . فقال السيد أحمد رضي الله عنه : حُشرتُ محشر هامان إن خطر لي أني شيخ أحد منهم إلاّ أن يتغمدني الله برحمته فأكون كآحادهم . وقس هذه القصة على قول النبي ﷺ « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته » تر

أن القدم الأحمدي على القدم المحمدي وتعلم أن صاحب المقام في بحبوحة الأدب، زمامه الشرع ، وكلامه الحكمة ، وطوره الوقوف عند الحد ، وتعلم أن صاحب الحال في بحبوحة الانبساط زمامه الزهو ، وكلامه الشطح ، وطوره التزحزح الى ما هو فوق منزلته ؛ فكرّم أهـــل الاحوال ، واطرح أقوالهم حالة سُكرهم ولا تعبأ بها ، وإيّاك أن تهضم حقوقهم ، وأن تنتقص معاليهم ، واتبع أهل المقامات وانتفع بآدابهم ، وقلّدهم في أطوارهم ، وتأوّل كلام الكُمَّل ، وإن نأى التأويل فاحكم بوضعه وإسناده اليهم عن غـــير أصل ، وهم مُبرّؤون ومحفوظون ، وكلهم على هـــدى فإنهم أكابر الدين ، وأعيان المسلمين يؤخذ حال رسول الله ﷺ عنهـم ، ويُلتمس نور منهاجه الكريم منهم ، نعم إن أهل التمكين من جحاجحة هـذا الشأن الذين غلبوا أحوالهم ، وقيّدوا بالظاهر أقوالهم ، هم أرفع مقاماً ، وأطول أعلاماً ، وكلهم قافلة الحق ، ورجال الصدق ، نفعنا الله بهم أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .